رباط عبد الله ابن ياسين ودوره في

تحقيق الوحدة السياسية والدينية بالمغرب الأقصى

د. الدهماني سالم الدهماني

هذا البحث يتناول الحركة الإصلاحية التي قام بها يحيى بن إبراهيم الجدالي، وفقيه سوس عبد الله ابن ياسين ودورهم في نشأة الرباط الذي عرف برباط ابن ياسين وكيف نجح هؤلاء في تأسيس دولة المرابطين التي حملت عبئ الجهاد في غرب إفريقيا، والقضاء على الفوضى السياسية والدينية التي يتخبط فيها المغرب في شمال ووسط المغرب؛ والتي حمل لواءها بعد وفاة ابن ياسين الشيخ أبا بكر بن عمر اللمتوني والأمير يوسف ابن تاشفين.

وترجع بداية هذه الحركة الإصلاحية لقيام دولة المرابطين إلى الأمير يحيى إبراهيم الجدالي الذي كان رجلا صالحا متمسكا بالإسلام محاولا نشره بين أهله، وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول والصحابة سنة ٤٤٠هـ، وفي أثناء عودته إلى بلاده أخذ يطوف بالمراكز الثقافية بالمغرب لعله يجد فيها من يقوم بهداية قومه وإصلاحهم بما يرى فيهم من حالة الجهل والتأخر، وفي مدينة القيروان التي كانت مركز إفريقية العلمي في ذلك الوقت؛ التقى يحيى إبراهيم الجدالي بالشيخ أبا عمران الفاسي الغفجومي وكان من أقطاب المالكية، وانضم يحيى إلى حلقة دروسه، ولما رأى الفقيه أبو عمران الفاسي ميل يحيى لتفقهه في العلم سأله عن اسمه وقبيلته وموطنه، فأجابه بأنه من قبيلة اجدالة إحدى قبائل صنهاجة الجنوب(١)؛ ومن خلال الحوار والنقاش الديني اتضح إلى أبي عمران بأن الأمير

الجدالي يحيى بن إبراهيم كان في بديهيات الإسلام، وأنه لا يفقه من مبادئ الإسلام إلا قليلا ولا يحفظ من الكتب والفقه شيئا يذكر رغم أنه، كان أمير في قومه إلا أنه عرف عليه بأنه صحيح النية صادق العقيدة واليقين جاهل(٢) بما يصلح دينه، وتشير الروايات بأن الفقيه أبا عمران كان قد طرح عليه سؤالا؛ ما يمنعك من التعلم؟ فأجابه يحيى : "يا سيدي إن أهل بلادي قوم عمهم الجهل وليس فيهم من يقرأ القرآن ومع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه.. ولو وجدوا من يقرئهم القرآن ويبين لهم سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فلو ابتغيت الثواب من الله تعالى لبعثت معي إلى بلادنا بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين وتكون سبب لهدايتهم"؛ ويورد ابن عذاري عن يحيى بن إبراهيم الجدالي بقوله: "إننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم".(٣)

ويبدو من خلال الحديث الذي دار بينهم كان الفقيه أبا عمران قد تأثر بكلام يحيى ابن إبراهيم؛ وكان أبا عمران قد اهتم بطلب ذلك الأمير يحيى وعرض الأمر على أحد تلاميذه النابهين، غير أنهم رفضوا ذلك لصعوبة الحياة في الصحراء ثم جعل أبا عمران يفكر في فقيه آخر من فقهاء المغرب يسمى واجاج بن زللوا اللمطي وكان يقيم بمدينة نفيس(٤)، ويفهم من خلال رسائل أبا عمران إلى تلاميذه بأنه كان هناك مراكز إسلامية تطوعية، وأنه كان هناك مدارس فقهية تتنافس فيما بينها على نشر مذهب معين وكان أبا عمران من أقطاب المالكية.

وكذلك يفهم أيضا من ذلك بأن بعض تلاميذ أبا عمران تعذر ليس لصعوبة الصحراء فقط، بل يعزى إلى عدم القدرة الكافية على القيام بذلك العمل الذي أنيط به الشيخ عبد الله ابن ياسين؛ حيث أن أبا عمران عندما اجتمع مع يحيى بن إبراهيم كان قد وضع الخطوط الأولى مع هذا الزعيم،(٥) هدفها قيام دولة تقوم على أسس دينية صحيحة كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها سنوات عديدة، وفي ذلك يقول كتاب "ذكر" بعض مشاهير فاس في القديم "ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم ندبه إلى قتال برغواطة وقتال

زناتة على ما صدر منهم من ظلم واستنزال رؤسائهم من الولاية فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك".(٦)

وبناء على ذلك الاتفاق فقد وجه أبو عمران ذلك الأمير يحيى إلى رجل من فقهاء المغرب يسمى واجاج بن زللو اللمطي، وكان يقيم في رباط بمدينة نفيس(٧) كما سبق الإشارة إليه، وهو فقيه أهل سوس أخذ العلم عليه وانقطع للعبادة والعلم وأسس مدرسة للمالكية في بلده وكثر تلاميذه وعندما وصل الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى واجاج فتح له الرسالة ففرح به وأكرمه ودله على أحد تلاميذه؛ وهو الشيخ عبد الله ابن ياسين الجزولي حيث قبل هذا الشيخ الذهاب مع الأمير يحيى إلى الصحراء دون تردد حيث كان موطن جدالة ولمتونة.(٨)

وكان ابن ياسين زعيماً شجاعاً وقائداً مقداماً ومجاهداً لدينه وعلى الرغم من ذلك، فقد تمتع إلى جانب تمسكه الشديد بالمبادئ والعلم إخلاصه الديني للمذهب المالكي، وكان متحمسا لنشر تعاليم الإسلام وخطيباً بارعاً كرس معظم وقته وحياته لوضع رسالة التعاليم الإسلامية في يسر دون تشدد؛ كما كان لا يبخل بشيء بما يعرف من علم، ولم يتوقف عن مناشدة الناس في أن يبتعدوا عن الرذيلة وارتكاب الفواحش.(٩)

ذهب الفقيه عبد الله ابن ياسين إلى صنهاجة حيث أقام مع قبيلة جدالة رفقة صديقه يحيى بن إبراهيم، وكانت هذه القبيلة قد بلغت من العزة والقوة حتى اعترفت بها القبائل الأخرى، بأنها أقوى قبيلة في بدو المناطق الجنوبية، وكان ابن ياسين يهدف من وراء ذلك الرحلة إلى جدالة تحقيق الأهداف، بأن يتمسك الناس بقواعد الدين الإسلامي تمسكاً شديداً وأن يمد نفوذ قبيلة جدالة وسيطرتها على سائر قبائل المناطق الداخلية الجنوبية(١٠) بغية نشر مبادئ الإسلام الصحيحة؛ كما كان يهدف من وراء ذلك الاستفادة من قوة قبائل الصحراء، لما تتمتع به من نفوذ سياسي وعسكري يفرض السيطرة على المغرب ذاته، ومن المعروف أن ابن ياسين كان قد أقام في سوس الأقصى بمراكش لبعض الوقت؛ وكان أثناء وجوده هناك حاول أن

يغرس في نفوس قبيلة جدالة العقيدة الراسخة التي تنادي؛ بأن الإسلام لا فرق بين غني وفقير(١١)، وأن الناس متساوون في الحقوق والواجبات.

بدأ ابن ياسين متمسكاً بالصبر في نشر دعوته، ومع مرور الأيام بدأ يعلم أهل لمتونة وجدالة الدين، ويبين لهم شرائعه ويحثهم على إصلاح أمورهم فاعرضوا عنه ووقف أغنياء قبيلة جدالة في وجهه وأنكروا مبادئه وزعامته عليهم، ورفضوا القبول بالمساواة، بل اتجهوا إلى منزله وأصابوه ثم اضطر إلى الخروج عن ديارهم.(١٢)

إلا أن يحيى بن إبراهيم الجدالي تمسك ببقائه وأقنعه بأن يغادرا معا إلى جزيرة بنهر السينغال وبنوا بها رباطا كان الغرض منه أن يتخذوه مركزاً لنشر دعوتهم وأخذوا يعلمون الناس التفقه في دينهم، والمحافظة على شعائرهم والنهي عن العادات التي تدعو إلى المعاصي.(١٣)

ومع مرور الوقت التف حوله رجال من بينهم صديقه يحيى الذي كان يوما ما زعيماً لقبيلة اجدالة، والذي كان له دوراً كبيراً في اختيار ابن ياسين فقيها للقبيلة، وقد عينه ابن ياسين زعيماً لأتباعه.(١٤) الذين أطلق عليهم اسم المرابطين، فكان ذلك النواة الأولى لتأسيس دولة المرابطين؛ وكان يهدف ابن ياسين من تنصيب يحيى ابن إبراهيم في محل الزعامة بإضفاء اسم جديد على الجماعة؛ وأن يجعل نفوذه وتعاليمه في جماعة أخرى لا تنحصر في قبيلة واحدة حتى تتكون قوة جديدة في المغرب قادرة على أن تتجاوز حدود القبيلة.(١٥)

ويبدو أن ابن ياسين كان قد غير استراتيجيته بعدما فقد الأمل في قبيلة اجدالة؛ التي كانت تعتبر أقوى القبائل الصحراوية في ذلك الوقت، والتي عارضت فكره ووقفت ضده، وسرعان ما تجمعت حول ابن ياسين طائفة من تلاميذه وخاصة من اجدالة ولمتونة ومسوفة، وأخذت هذه الجماعات تزداد يوما بعد يوم حتى وصلت الألف تقريباً وهؤلاء حملوا معهم رسالة نشر مبادئ الإسلام في المغرب؛ لقد كان من كلمات الفقيه ابن ياسين المأثورة والحكيمة التي خاطب بها الفقيه تلاميذه أثر كبير في قوة هذه الجماعة حيث خاطبهم قائلا: "أخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم

وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم، استعنا بالله عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا.(١٦)

لقد كانت تلك العبارات بمثابة منهاج عمل وضعه ذلك الفقيه لأتباعه، وقد استطاع ابن ياسين أن ينظم أتباعه وسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ يعلمهم القراءة والسنة وأحكام الدين، وكلمة المرابطين جاءت من الرباط بمعنى الخلوة التي اتخذها ابن ياسين وجماعته مركزاً لانطلاق دعوته في جزيرته بنهر السينغال.(١٧)

فالرباط لم يكن مجرد موقع ترابط فيه الجماعة، بل كان له من الأهمية ما دفع البعض بأن يجعل هذا الإسم للجماعة بأسرها، وحسب المفهوم العام للرباط عبر مراحل التاريخ الإسلامي، بأن الرباط مكان ذو حرمة معينة يجتمع فيه الناس للصلاة والعبادة، ثم في نفس الوقت حصن يدافع فيه المجاهدين عن الدين الإسلامي وعن البلاد؛ أو بمعنى آخر ثغر على حدود الإسلام، حيث يرابط فيه المسلمون للدفاع عن ديارهم.(١٨) وأراضيهم ضد أعدائهم في الدين؛ ويشير المؤرخ ابن الأثير بأن عبد الله ابن ياسين كان قد قلد أبي بكر بن عمر شيخ لمتونة اللواء، وأطلق عليه اسم أمير المسلمين وسمى المجاهدين في سبيل الله المرابطين.(١٩)

ويعطي مدلول المرابطين عند بعض المؤرخين والمفسرين بمعنى الأتقياء المجاهدين في سبيل الله وهو لفظ مأخوذ من رباط أي حراسة الحدود، حيث كان يذهب المخلصون لدين الله لمراقبة الحدود من العدو والدفاع عنها.(٢٠)

وقد ورد لفظ رباط في القرآن الكريم حيث آذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين للحفاظ على روح الدعوة الإسلامية ضد من يقف في طريقها حيث قال الله عز وجل في كتابه في سورة الأنفال آية ٦١: **"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون"**؛ ويبدو من خلال مفهوم الرباط أن الاتجاه الديني في إطلاق اسم المرابطين كان أقوى من العامل السياسي، حيث كانت الروح

الدينية هي العامل المحرك للجهاد، حتى أن الإسم الذي أطلق على أمراء المرابطين تحت إسم أمير المسلمين يحمل في مفهومه التأثير الديني في بناء النظم الإدارية للمرابطين.

فاسم أمير المسلمين كما سبق ما هو إلا ملك مجاهد؛ وكان المجلس الاستشاري لتلك الرباط يتكون من رجال الدولة؛ وكان الفقهاء من أبرز أعضاء هذا المجلس للدور الهام الذي كانوا يقومون به، ومن هنا نفهم أيضا أن لفظ رباط قد استمد أهميته الدينية والعسكرية وصار هو المؤسسة التنظيمية الرئيسية التي حلت محل القبيلة.(٢١)

وكان المرابطون يقسمون البلاد التي تحت حوزتهم إلى عدد من المناطق المنفصلة لكل منها رباط يقوم بدوره السياسي والعسكري والديني والقضائي، وكان لكل رباط موقعه المناسب، وفي داخل كل رباط تقوم الجماعة بإنتاج ما تحتاج إليه من غذاء وماء.(٢٢)

وبذلك نلاحظ أن ابن ياسين كان قد أدخل فكرة جديدة على الرباط بحيث جعلها تخدم هدفين: أولهما إعادة تنظيم المرابطين على أساس وحدة الأرض لا وحدة الأسرة أو القبيلة، وثاني الأهداف: هو مبدأ ذلك التنظيم الإقليمي الذي قام على الرباط، وهي فكرة ذات مفاهيم دينية وعسكرية في آنٍ واحد وبمرور الزمن دخل الناس أفواجاً في قوات ابن ياسين الجديدة، وكان في أثناء ذلك توفى الشيخ يحيى ابن إبراهيم سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، والذي كان زعيماً على قبيلة اجدالة، ثم عين ابن ياسين على قيادة المرابطين الشيخ يحيى ابن عمر اللمتوني.(٢٣)

وكان اختيار شخص من قبيلة لمتونة ذات دلالة تاريخية، حيث أن هذه القبيلة كان لها ماض عريق بين غيرها من القبائل الصحراوية، وبذلك كان الشيخ عبد الله ابن ياسين يربط بشكل واضح حركة المرابطين الجديدة بذلك الاتحاد اللمتوني التقليدي، وعلى كل حال فقد نجح ذلك الجهاد في أن ظلت الحركة السياسية للمرابطين تكتسب المزيد من القدرة، والقوى السياسية مع طول الأيام وانتشر صيت رباط ابن ياسين لمبادئه السامية، وزاد من تدفق الناس في المذهب الجديد أفواجاً

كبيرة حتى أصبحت تحل الجماعات السياسية العسكرية والاجتماعية محل التجمع القبلي.(٢٤)

وسرعان ما تمكن يحيى بن عمر من بسط نفوذه وسلطانه بوسط الصحراء الكبرى كلها حتى منطقة النيجر؛ فاستطاع أن يهيمن على المناطق الجديدة في تلك المنطقة وسيطر على مراكز التجارة المارة بالإقليم(٢٥)، وخلال تلك الحركة السياسية استطاع ابن ياسين أن يرسل رسائله إلى القبائل المجاورة يدعوها إلى الانضمام، فانضمت أفواجاً عديدة إلى ذلك الرباط(٢٦).

وقد أصبح للرباط معنى آخر في شمال إفريقيا؛ حيث كان فقهاء المالكية يلقون دروسهم بمساجد القيروان من أجل الدفاع عن المذهب المالكي ودعوة الناس إلى التزهد والتعبد، وقد فضل الكثير من الناس الابتعاد عن المدن التي سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى، حيث كان الناس يرحلون إلى الرباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقين العلوم الدينية.(٢٧)

ويبدو أن انتشار الرباطات في شمال إفريقيا كان بمثابة ردة فعل معاكسة ضد المذاهب التي تختلف مع المذهب السني؛ كالمذهب الشيعي والمذهب الخارجي البرغواطي خاصة، وإذا كان الربط قد استمر على ما هو عليه في إفريقية والمغرب الأوسط فإنه يختلف في المغرب الأقصى وفق الظروف السياسية والدينية؛ حيث أن المغرب الأقصى قد تحول فيه الرباطات من رباط للتزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية لمحاربة المذاهب الأخرى المارقة.(٢٨)

لقد امتاز رباط ابن ياسين بأنه لعب دوراً أساسياً في عدة ميادين؛ حيث كان مكاناً لتدريس العلم وللعبادة وينطلقون منه لجهاد المشركين والقضاء على عناصر الفتنة، من قبائل غمارة في الشمال فقد لعب ذلك الرباط دوراً تاريخياً في تاريخ المغرب والأندلس، وكان ذلك الرباط يشكل الجهاز السياسي الأول الذي جمع عدد من الشيوخ والفقهاء الذين كان على رأسهم الشيخ ابن ياسين؛ الذي كان القوة الدافعة للحركة المرابطية والموحد بين قبائلهم والمخطط الحربي في الوقت الذي كان يحيى ابن إبراهيم الموجه السياسي من الناحية النظرية.(٢٩)

ويبدو من سير الأحداث أن المرابطين كانوا قد تفهموا جيدا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المرابطة، وفخموا من شأنها حتى أصبحت إسماً علماً لهم وأصبحت فيما بعد بمثابة وسام عسكري يقدمه كل مرابطي لأتباعه المجاهدين ليؤكد من جديد سنة أسلافه في إثبات الجهاد والرباط والدفاع عن الإسلام من المارقين.(٣٠)

وبهذه المبادئ النبيلة خرج المرابطون بعد أن نظموا أنفسهم من الناحية العسكرية والإدارية إلى صوب الصحراء بقيادة زعيمهم ابن ياسين وقائده يحيى ابن عمر اللمتوني، حيث استطاعوا أن يسيطروا على جميع تخوم الصحراء وتوغلوا في بلاد السودان واتجهوا ناحية الشمال وفتحوا درعة وسجلماسة وقضوا على أهل البدع والشعوذة وأحلوا محلها أحكام الدين الإسلامي.(٣١)

وكان ابن ياسين لم يقم بهذا العمل هو وأصحابه حتى بعث أهل درعة وسجلماسة يطلبون إليهم أن يساعدوهم في فتح بلادهم وتطهيرها من الفساد والبدع ومن أعداء زناتة، وعندما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله ابن ياسين شيخ المرابطين جمع ابن ياسين شيوخ المرابطين وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر فكان رد هؤلاء الشيوخ بقولهم: "أيها الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله، فدعا لهم بالخير وحضهم على الجهاد".(٣٢)

وقد كتب الله النصر للمرابطين على حكام درعة وسجلماسة واستولوا على أسلحتهم وأموالهم، وقام عبد الله ابن ياسين بتوزيع الغنائم على حسب ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، حيث أخرج الخمس قسمه على فقهاء درعة وسجلماسة وأهل التقوى والصلاح ثم وزع الأربع الأخماس الباقية على المحاربين.(٣٣)

وقد يروي بعض المؤرخين أن سبب خروج المرابطين إلى مناطق الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين في التحكم في طرق التجارة الشمالية، والتمتع بأرض المغرب الخصبة(٣٤)، ويجب ألا ننكر أهمية العامل الاقتصادي في هجرة الشعوب من منطقة إلى أخرى إلا أن الاعتماد على هذا التفسير دون الانتباه إلى الدوافع الأساسية الأخرى لا تستقيم هنا في حالة المرابطين، خصوصا وأن الطريق التجاري الصحراوي بين منطقة أودغشت جنوبا وسجلماسة

شمالاً كان طريقاً معروفاً منذ القدم، وكانت قبائل صنهاجة التي انطلقت منها دولة المرابطين تعيش في صحرائها من قديم وغالباً ما عانت من أهوال الجدب والقحط، وكونت أحلافا اقتصادية فيما بينها ولم تقم بمثل هذه الهجرات الجماعية المنضمة إلى الشمال، مما يدل على وجود عامل أساسي جديد دفع بهذه القبائل إلى التكتل والاندفاع إلى خارج الصحراء شمالا وجنوبا، وهذا العامل هو واضح من دون شك هو الدين الإسلامي(٣٥)؛ فالمرابطون قبل كل شيء كانوا أصحاب رسالة دينية سياسية يريدون تحقيقها، وهو السبب الأساسي في خروج المرابطين من الصحراء شمالا نحو المغرب وجنوباً نحو السودان، وكان هدف ابن ياسين هو فتح بلاد السودان وتحويل أهلها إلى الإسلام ونشر مذهب الإمام مالك بين شعوب إفريقيا.(٣٦)

إن الدارس لحالة المغرب في أوائل القرن الخامس للهجرة؛ يلاحظ أن المغرب كان يعاني محنة سياسية ودينية خطيرة وقد قدم الرحالة البكري صورة مفصلة لموجة التنبؤ والشعوذة التي عمت جزء كبير من بلاد المغرب الأقصى في تلك الفترة. كما صور لنا ابن عذاري حالة الفوضى السياسية والاجتماعية التي يعيشها المغرب في عبارة مختصرة: "وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك الطوائف".(٣٧)

وإذا حصرنا تلك الفرق السياسية والدينية والمتمثلة في قبائل غمارة في الشمال وقبائل برغواطة في الغرب وقبائل زناتة وطوائف الشيعة الرافضة والوثنيين في الجنوب، فإذا ما حصرنا ذلك الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين فسوف يقف المؤرخين على حقيقة الأمور، ويعرفوا سبب خروج المرابطون من الصحراء(٣٨)؛ فبعد استشهاد الأمير يحيى بن عمر سنة ٤٤٧هـ في أحد غزواته قلد الشيخ عبد الله ابن ياسين أخاه أبا بكر ابن عمر اللمتوني قيادة جيش المرابطين سنة ٤٤٨هـ، وأمره بالاتجاه إلى بلاد سوس واستولوا على قاعدتها بتارودانت وقضوا على الشيعة والوثنيين؛ كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك المناطق واستطاعوا أن يعيدوا تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة(٣٩)، ثم استولوا على مدينة أغمات،

حيث قتل أميرها لقوت المغراوي وتزوج الأمير أبو بكر ابن عمر أرملته زينب النفزاوية؛ التي أشاد الكثير من المؤرخين بجمالها وحنكتها السياسية، ونظرا لأهمية أغمات الاقتصادية فقد اتخذها المرابطون عاصمة مؤقتة حتى يتم لهم تأسيس عاصمتهم الجديدة مراكش.(٤٠)

وبعد استيلاء المرابطون على أغمات اتجه المرابطون بقيادة عبد الله ابن ياسين وأبو بكر بن عمر نحو برغواطة؛ في الوقت الذي كلف يوسف بن تاشفين بالتحرك نحو قبيلة غمارة في الشمال، ويبدو من سير العمليات العسكرية إن تحركات جيش المرابطين كان في اتجاهين في الشمال وفي الغرب خاصة؛ حيث دارت معركة بين المرابطين والبرغواطيين قرب مدينة الرباط الحالية في منطقة زعير، حيث دارت المعركة واستشهد فيها الشيخ عبد الله ابن ياسين وولي الأمير أبو بكر ابن عمر اللمتوني زعامة المرابطين الروحية والعسكرية، وبدأ بتوحيد صفوفهم من جديد بعد مقتل زعيمهم الروحي ابن ياسين؛ وتروي المصادر أن أبا بكر ابن عمر صلى بجنوده ثم دعا ربه وسمعه معظم جيشه: "اللهم إن كنا على حق فانصرنا وإلا فأرحنا من هذه الدنيا"، تم اندفع بجنوده نحو براغواطة فاستأصل شافتهم ومحا دعوتهم وأسلم الباقون منهم إسلاماً جديداً.(٤٢)

أما المعركة الثانية فقد اتجه صوب الشمال ضد قبائل غمارة بقيادة يوسف ابن تاشفين، وكان يوسف قد تحاشى الاصطدام بالقوات الزناتية ودخل فاس صلحا عام ٤٥٠هـ وترك فيها حامية صغيرة، ثم اتجه شمالا نحو بلاد غمارة وفتح جبالها وبلادها من الريف إلى طنجة وبنى فيها الحصون فاستطاع أن يطهرها من الفساد.(٤٣)، وبينما يوسف يحارب غمارة في الشمال إذ بالقوات الزناتية في فاس يتكتلون ضده، ويقتلون حاميته في فاس ويستولون على المدينة واضطر يوسف إلى العودة وقاتل الزناتيين وانتصر عليهم ودخل فاس للمرة الثانية عام ٤٦٢هـ. (٤٤)

وبعد سيطرة المرابطين على المغرب الأقصى تم للمرابطين بناء مدينة مراكش على يد الزعيم اللمتوني أبا بكر ابن عمر عام ٤٦٢-١٠٧٠هـ لتكون قاعدة لملكهم، ثم ترك أبا بكر ابن عمر الأمر في المغرب الأقصى لابن عمه يوسف ابن تاشفين،

واتجه عبر الصحراء للجهاد في الجبهة الثانية ضد مملكة غانة الوثنية، وفي سبيل ذلك الهدف العظيم اضطر الأمير المجاهد أبا بكر أن يترك زوجته وأهله ووطنه ويفضل الجهاد في سبيل الله، وتروي المصادر بأن أبا بكر كان قد قال إلى زوجته زينب النفزاوية عند فراقه لها: "إني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق بالشهادة والفوز بالأجر الوافر، ولا يمكن أن أتركك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسؤولاً عنك والرأي أن أطلقك"، وفعلا طلقها وتروي المصادر بأنه أشار على ابن عمه يوسف ابن تاشفين بأن يتزوجها فتزوجها.(٤٥)

ثم خرج أبا بكر مجاهدا إلى بلاد السودان الغربي وتم فتح بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر، ودخل الكثير منهم في الإسلام ممن لم يكن قد أسلم من قبل، ويقول لنا صاحب القرطاس: "خرج أبا بكر إلى غزو بلاد السودان فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر إلى أن استشهد بسهم مسموم بعد أن استقر له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان".(٤٦)

فمن خلال النصوص التاريخية وغيرها تؤكد المصادر بأن سقوط مملكة غانة وانتشار الإسلام بين أهلها وقيام مملكة مالي الإسلامية على أنقاضها كان ذلك ثمرة جهاد هذا الأمير وجنوده المرابطين، والذي يستحق دراسة تحليلية مفصلة عن دوره ودور صاحبه ابن ياسين حول دورهم في انتشار الإسلام في إفريقيا، وهكذا انتهت حياة ذلك الأمر المجاهد بالشهادة التي كان يطلبها كغيره من القادة الفاتحين، أمثال عقبة ابن نافع، وبعد موته تولى الأمر على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف ابن تاشفين الذي اعتبره بعض المؤرخين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين، حيث وطد أركانها وأعطاها كياناً دولياً ثابتاً وهو الذي سيقودها إلى أعظم الانتصارات والتي كان أولها معركة الزلاقة بالأندلس، والتي هي الأخرى تحتاج إلى دراسة مفصلة عن تلك الملحمة التاريخية وقائدها يوسف ابن تاشفين.

المصادر والمراجع

١- حسن إبراهيم حسن، "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، ج ٤ طبعة أولى، القاهرة ١٩٧٦، ص: ٢٨٢، أحمد مختار العبادي "في تاريخ المغرب والأندلس"، بيروت بدون سنة الطبع، ص: ٢٧٠.

٢- حسن إبراهيم، نفس المرجع، ص: ٦٩، أحمد العبادي، نفس المرجع، نفس الصفحة، د. أحمد الطاهري، "دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس"، طبعة أولى، سنة ١٩٩٣، ص: ٦٩.

٣- ابن أبي الزرع، "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، ج ٢، الرباط ١٩٣٦ ص: ١٠، حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٣.

٤- ابن الأثير: "الكامل في التاريخ"، القاهرة، ج ٩ ص: ٢٣٢، حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص: ٢٨٣، عبد الطيف البرغوثي، "تاريخ ليبيا الإسلامي"، بيروت، ١٩٧١، ص: ٥٩٣، أحمد العبادي، مرجع سابق، ص: ٢٧١.

٥- عبد القادر ازمامة، أبو عمران الغفجومي، مجلة البينة، شهر يوليوز ١٩٦٢.

٦- حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٣، العبادي، مرجع سابق، ص: ٢٧١، البرغوثي، مرجع سابق، ص: ٥٩٣- ٥٩٤.

٧- حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٣، العبادي، نفس المرجع، نفس الصفحة.

- عبد اللطيف البرغوثي، "تاريخ ليبيا الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العباسي"، بيروت ١٩٧١ نفس الصفحة.

٨- ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، ج ٩ ص: ٢٣١-٢٣٢، حسن إبراهيم، نفس المرجع، نفس الصفحة، العبادي، نفس المرجع، نفس الصفحة.

٩- ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، ص: ٢٣١، حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٣، البرغوثي، مرجع سابق، ص: ٥٩٣، محمد صالح منصور، "العلاقات

بين المرابطين وملوك الطوائف في الأندلس"، بنغازي، طبعة أولى ١٩٩٥، ص: ٣٧.

١٠- الناصري، "الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى"، ج ٢ ، ص: ٨، محمد صالح منصور، مرجع سابق، ص: ٣٨.

١١- ابن خلدون مجلد ٦، ص: ١٨٣، ابن عذاري مجلد ٤ ص: ٨، محمد صالح منصور، مرجع سابق، ص: ٣٨.

١٢- ابن الأثير، مصدر سابق، ج٩، ص: ٢٣١-٢٣٢، حسن إبراهيم، ص: ٢٨٤.

١٣- الناصري، الاستقصاء ج٢، ص: ٨، العبادي، مرجع سابق، ص: ٢٧٢، عبد الهادي التازي، "التاريخ الدبلوماسي للمملكة المغربية منذ أقدم العصور إلى اليوم"، المجلد الخامس، طبعة أولى ١٩٨٧، ص: ٣٣.

١٤- ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص: ٨٤، ابن خلدون، العبر، مجلد ٦، بيروت ١٩٥٩، ص: ١٨٣-١٨٤.

١٥- محمد صالح، مرجع سابق، ص: ٣٩.

١٦- أرنولد توماس، "الدعوة إلى الإسلام"، ترجمة المؤلف، ص: ٢٦٧-٢٦٨، حسن إبراهيم، ص: ٢٨٤.

١٧- حسن إبراهيم حسن، ص: ٢٨٥، العبادي، مجلة تطوان، العدد الخامس ١٩٦٠، ص: ١٤٧، التازي، "التاريخ الدبلوماسي" ج٥، ص: ٣٥.

١٨- حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٥، محمد صالح منصور، مرجع سابق، ص: ٤٠.

١٩- ابن الأثير ج٩، ص: ٢٣٢، حسن إبراهيم، ص: ٢٨٥.

٢٠- حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٥، أحمد العبادي، مجلة تطوان، العدد الخامس ١٩٦٠، ص: ١٤٧.

٢١- حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص: ٢٨٥، العبادي، "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين"، مجلة تطوان، العدد الخامس سنة ١٩٦٠، ص: ١٤٦-١٤٧.

٢٢- محمد أبو شعيرة، المرابطون، القاهرة ١٩٥٩، ص: ٤١،٤٢، محمد صالح منصور، مرجع سابق، ص: ٤٠.

٢٣- محمد أبو شعيرة، المرابطون، ص: ٤٧-٤٨، محمد صالح منصور، مرجع سابق، ص: ٤٠.

٢٤- "روض القرطاس"، ص: ٨٦-٨٧، ابن عذارى، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، مجلد رابع، الناشر إحسان عباس، بيروت، دار التقوى ١٩٦٧.

- يوسف أشباخ، "تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين"، ترجمة محمد عنان، القاهرة ١٩٥٨، ص: ٦١،٦٢.

٢٥- أحمد الناصري، الاستقصاء، المجلد الثاني، ص: ٨،٩، محمد صالح منصور، ص: ٤١.

٢٦- الناصري، مجلد ٢، ص: ٨، حسن إبراهيم حسن، ص: ٢٨٤.

٢٧- حسن إبراهيم حسن، ص: ٢٨٦، أحمد العبادي "في تاريخ المغرب والأندلس"، ص: ٢٧٦.

٢٨- البكري، "كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"، طبعة ثانية، الجزائر ١٩١١، ص: ١٩، حسن إبراهيم، ص: ٢٨٦.

٢٩- حسن إبراهيم، مرجع سابق ص: ٢٨٦، العبادي، ص: ٢٧٣.

٣٠- العبادي، ص: ٢٧٤.

٣١- حسن إبراهيم حسن، ص: ٢٨٦، العبادي ص: ٢٧٥.

٣٢- ابن خلدون، العبر ج٦، ص: ٢١٨، البكري، مصدر سابق، ص: ١٠١، ١٠٢.

- العبادي، مرجع سابق، ص: ٢٧٥، حسن إبراهيم، ص: ٢٨٧.

٣٣- السلاوي، الاستقصاء، ج٢، ص: ١٢،١٣، حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص: ٢٨٧، حسن إبراهيم حسن، "انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، ص: ٥٧.

٣٤- ارشيبالد يوسي، "القوى البحرية في حوض البحر المتوسط"، ص: ٣٦٢-٣٦٣.

٣٥- العبادي، ص: ٢٧٥-٢٧٦، التازي، ص: ٣٦،٣٧.

٣٦- حسن إبراهيم حسن، "انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، طبعة ثانية، القاهرة ١٩٦٤، ص: ٥٦،٥٧، حسن إبراهيم حسن، "تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي"، ج٤، ص: ٤٣٨،٤٣٩، العبادي، ص: ٢٧٦.

٣٧- ابن خلدون، العبر ج٦، ص: ٢١٦، العبادي، ص: ٢٧٦.

٣٨- البكري، مصدر سابق، ج٢، ص: ١٠١-١٠٢، ابن خلدون، العبر ج٦، ص: ٢١٦.

٣٩- روض القرطاس ج٢، ص: ٢٣-٢٤، العبادي، ص: ٢٩٣.

٤٠- ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، مجلد ٨، ص: ٧٥، الناصري، مجلد٢، ص: ١٦-١٩، العبادي، ص: ٢٩٤.

٤١- ابن الخطيب، "إعمال الإعلام"، القسم الثالث، ص: ٢٢٩-٢٣٠.

- العبادي، ص: ٢٩٤، مراجع عقيلة الغناي، "قيام دولة الموحدين"، بنغازي ١٩٨٨، ص: ٤٨.

٤٢- ابن الأثير، "الكامل" ج٩، ص: ٢٥٩-٢٦٠، روض القرطاس ج٢، ص: ١٤٤-١٤٥، العبادي، ص: ٢٩٥.

٤٣- كتاب الاستبصار نشره سعد زغلول، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨، ص: ١٩٠.

- العبادي، ص: ٢٩٥.

٤٤- السلاوي الناصري، الاستقصاء، ج٢، ص: ٢٧، حسن أحمد محمود، "قيام دولة المرابطين"، ص: ٢٠٣.

٤٥- "روض القرطاس" ج٢، ص: ٣٣-٣٩، العبادي، ص: ٣٠٤.

٤٦- روض القرطاس ج٢، ص: ٣٥، حسن إبراهيم حسن، "انتشار الإسلام في القارة الإفريقية"، ص: ٥٦،٥٧، مراجع عقيلة الغناي، مرجع سابق، ص: ٤٩.